

The Ottoman Baths in Al-Midan neighborhood of Damascus

Archaeological study

Dr. Fatima Hindawi



الحمامات العثمانية في حي الميدان الدمشقي دراسة تاريخية أثرية

الدكتورة فاطمة هنداوي(1)

(1) عضو الهيئة التدريسية في قسم الآثار - جامعة دمشق.

ملخص البحث

يتحدث هذا البحث عن الحمامات العثمانية في حي الميدان، وتضمنت الدراسة توضيح تاريخ المبنى ونشأته، مع توصيف لتفاصيله من الناحية المعمارية، إضافة إلى تحليل العناصر الإنشائية، وتحليل نمط البناء والزخرفة في الحمامات العثمانية.

تمهيد:

بدأت مدينة دمشق، في منتصف القرن العاشر الهجري = السادس عشر الميلادي، تشهد توسعات ملحوظة، فامتدت خارج السور من جهاته الأربع، وخاصةً الجهة الجنوبية.

يقع حي الميدان في الجنوب الغربي من مدينة دمشق، ويعدّ من أكبر أحيائها مساحةً وسكاناً. وهو إلى ذلك من أقدم أحياء المدينة خارج السور، إذ تعود بداياته الأولى إلى العصر الأموي، حين كانت أرضه ميداناً لسباقات الخيل والفروسيّة، وتذكر بعض المصادر أن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك كان يحضر سباقات الخيل التي كانت تُقام في أرض هذا الميدان الفسيح. كما كان يُخيم بأرض الميدان زوّار المدينة، سواء من القوافل التجارية، أو ممن يرافقون القادة والأمراء، حيث إنّ المدينة القديمة داخل السور أخذت تضيق عن استيعابهم، وشكلت هذه المخيمات النواة الأولى لتشكيل هذا الحي العريق.

وقد اكتسب الحي أهميّة كبيرة نظراً لموقعه الجغرافي الهام، فهو بوابة دمشق ونافذتها إلى جنوب سورية، ونقطة التبادل التجاري مع الأردن والحجاز وفلسطين ومصر. ويُذكر أنّ نهاية الميدان الجنوبيّة عُرفت وما تزال تُعرف باسم البوابة، اختصاراً لتعبير (بوابة الله أو باب الله)، لأنها تؤدّي إلى بلاد الله، وهي الأماكن المقدسة في الحجاز والقدس^(٢).

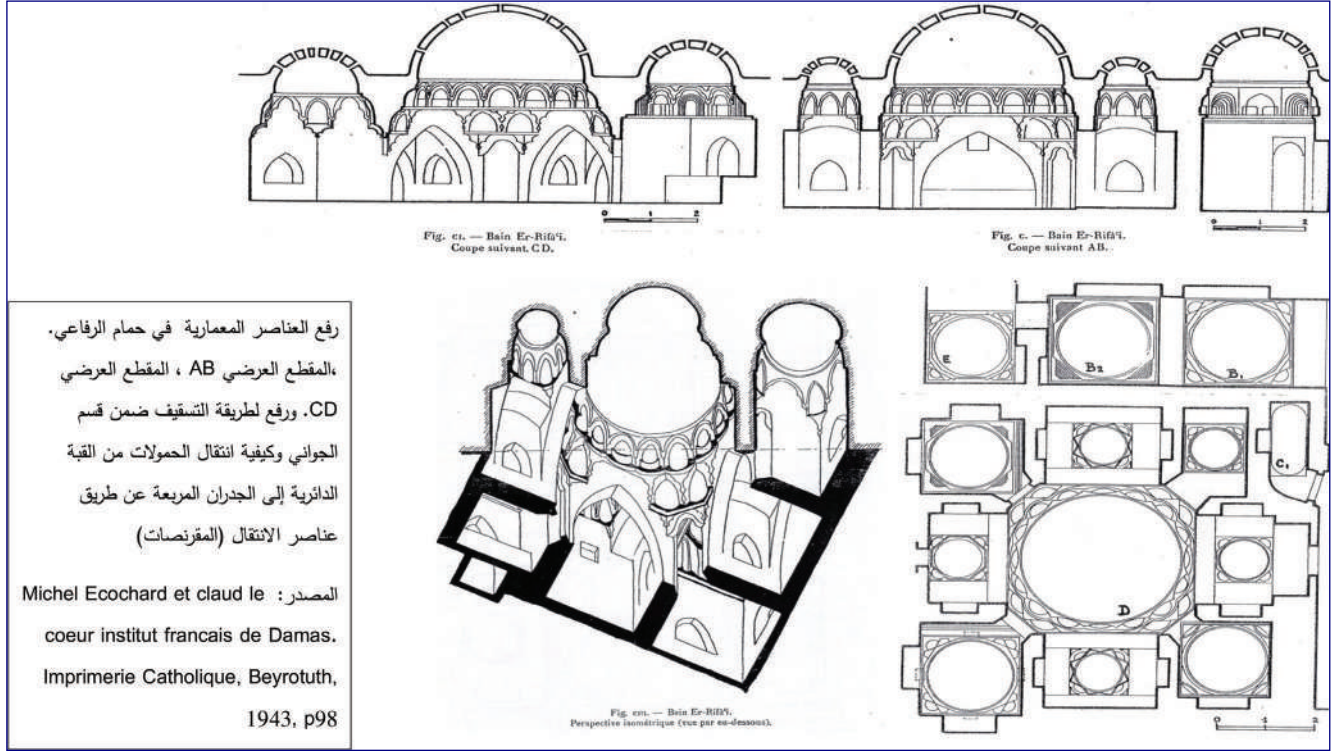
والجدير بالذكر أنّ لحي الميدان دوراً مهماً في تسهيل سفر قافلة الحج الشامي إلى الحجاز، وتزويدها بالموّن والجمال (المعروفة بموكب الجردة) حيث إنّ القافلة كانت تعبر الحيّ في طريقها إلى الديار المقدسة، وعند عودتها عبر الطريق الممتدّ من السوقية شمالاً وحتى البوابة جنوباً، الذي يُعرف بالطريق السلطاني (سمي بذلك لكثرة مرور السلاطين والولاة منه)^(٣)، وهذا ما دفع في البداية إلى

(2) حي الميدان في العصر العثماني: بريجيت مارينو، ص76

(3) تسمية السلطاني هي من مصطلحات العصر العثماني، تُطلق في دمشق كثيراً على المواضع التي تُحاذي (الدرب السلطاني)، وهو الطريق الرئيسي الرسمي الذي يقطع الشام وضواحيها، ويمر بجوار السور الغربي للمدينة القديمة عند باب الجابية، بعد أن يكون قد مر بالقلعة وجامع السنجدار، ثم يجتاز ضاحية الميدان جنوباً حتى يصل إلى بوابتها (بوابة الله)، ومنها ينطلق إلى الحجاز أو فلسطين ومصر.

وهذا الطريق سمي سلطانياً، لأنه المعبر الرسمي لكل من محمل الحج وقوافل الجردة والدورة لخفارة طريق الحج من قطاع الطرق. والجدير بالذكر أنّ الطريق ذاته يمر بسوق صاروجا (سوق ساروجة)، وتسمى المحلة هناك (ساروجة سلطاني)، ثم ينزل جنوباً باتجاه البحصّة البرانية وبلغا، ثم ساحة المرجة ودار المشيرية، وبعدها يستمر إلى محلة السنجدار والقلعة.

دمشق في مطلع القرن العشرين: أحمد حلمي العلاف، ص56.



إنشاء أسواق لخدمة الحجاج والتجار، ومن ثم إنشاء الدور السكنية.

وقد تنوعت هذه الأسواق مثل سوق الخيل والجمال والجزماتية والنحاسيات وغيرها، كما تنوعت المرافق الخدمية لتأمين احتياجات الزوار والمارين، سواء كانت مساجد أو زوايا صوفية أو محلات تجارية متخصصة وحمامات وغيرها من المعالم الحضارية، التي أكسبت الحي أصالة وغنى.

ونظراً لهذه الأهمية فقد استقطب الميدان أعداداً كبيرة من السكان من المناطق المجاورة والبعيدة، قدموا إليه للمتاجرة أو هرباً من الاضطرابات، ولهذا ازداد امتداده باتجاه الجنوب واندمجت به بالتدريج قرية القبيبات، وغدا طول الحي من باب الجابية الذي يربطه بدمشق إلى نهايته الجنوبية ما يزيد على ثلاثة كيلو مترات، ثم أخذ بالتوسع على الجانبين، ونظراً إلى هذا الامتداد قسم الميدان اصطلاحاً إلى ثلاثة أقسام: الميدان التحتاني، وهو الأقرب إلى دمشق، والميدان الوسطاني، والميدان الفوقاني الذي ينتهي بالبوابة.

أولاً - حمامات دمشق:

وكان من الطبيعي أن يشهد حي الميدان عملية بناء مشيدات دينية وأبنية مخصصة لأغراض اقتصادية واجتماعية، تخدم الحجاج والمسافرين والتجار وسكان الحي عامة. كما تميّزت منطقة الميدان بكثرة الحمامات المشيدة بها، وذلك بسبب تزايد أعداد الخانات والنزل الخاصة بالتجار والحجاج المسافرين المنتشرة في الحي.

وقد أجمع الذين ساحوا في أنحاء الممالك العثمانية، وبعض الديار الشرقية، على تفضيل حمامات



تحليل خطوط الزخرفة وهي أطباق نجمية تشكلت من وحدات هندسية متكررة على أساس النجمة ذات العشر زوايا فوق هيكل مؤلف من خطوط متوازية في خمس اتجاهات.

المصدر: إيفا ويلسون، ص ٧٨.

وحدة هندسية ذات إطار سداسي مزوج وفي الداخل رسمت نجمة فوق هيكل مؤلف من ثلاث مربعات.

المصدر: إيفا ويلسون، ص ٨٩

الصور: الباحثة

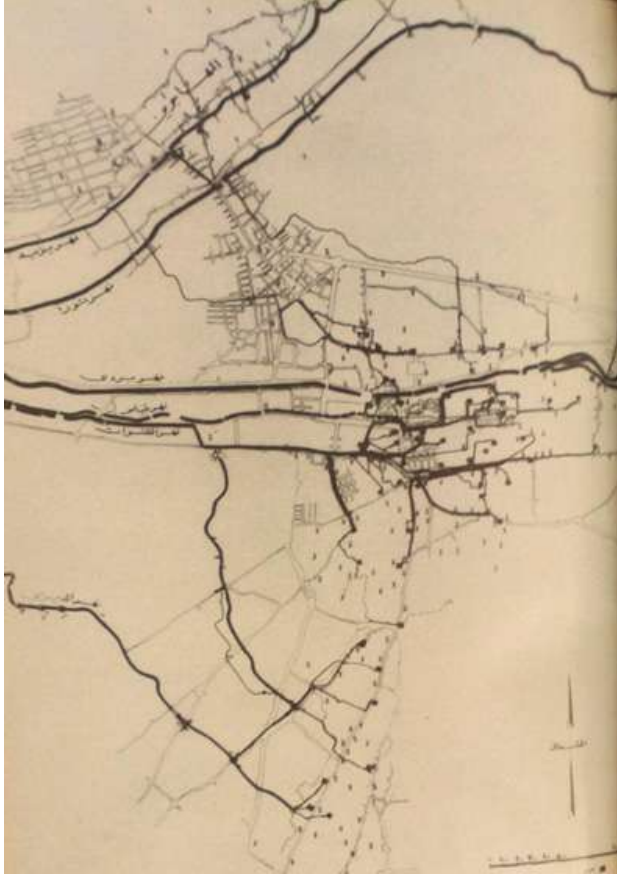
دمشق على غيرها، لما فيها من الإتقان والنظام والهندسة وغزارة المياه وإتقان الخدمة والإكرام والاعتناء^(٤). واشتهر في تصميم الحمامات العامة مخططان اثنان من حيث الشكل، الأول طغت فيه القاعة الدافئة على ما سواها، فكانت ثمانية الأضلاع أو باثني عشر ضلعاً، أمّا المخطط الثاني فهو طولي، تصطف فيه قاعات مستطيلة، وتحتل القاعة الأولى مركز الصدارة، وفي أحيان كثيرة كان يُكتفى بثلاث قاعات البراني والوسطاني والجواني:

١_ البراني: وهو باحة مسقوفة بعدد من العقود المتقاطعة، التي تتلاقى في قبة، تصطف في جوانبها النوافذ الملونة والزجاج، في أعلاها رقبة ترتفع مشكلة ما يُشبه المنور أو البرج، وهو مؤلف من مجموعة نوافذ تجتمع لتكون ختمة القبة.

ويتخذ البراني شكلاً رباعياً، تنتصب في وسطه بحرة من الرخام الملون، وفي وسطها نافورة تنطلق منها المياه لتتشر الرطوبة والنشاط في البراني. أمّا الأرضية فهي مرصوفة بحجارة مصقولة، ويتخللها تشكيلات بديعة من الرخام، تتضمن أشكالاً هندسية تتتالي في انتظام وتناظر بديع للنفور من الفراغ. والجدران عادة مؤلفة من أقواس حجرية تستند عليها القبة، وتحت كل قوس أقيمت مصطبة، وهذه المصاطب يخلع الزبائن عليها ألبستهم قبل الدخول، أو تستخدم للاستراحة بعد الاستحمام.

٢_ الوسطاني: ندخل إليه عن طريق باب في البراني، يؤدي إلى دهليز، تقع في ركن من أركانه أماكن الراحة (المراحيض). ومنه تنتقل إلى بهو ذي مصطبتين، وفيه يمر ممشى مبلط ببلاطات حجرية

(4) الروضة الغناء في دمشق الفيحاء: نعمان القساطلي، ص 108-109



مخطط يوضح موقع الحمامات والجوامع في مدينة دمشق وضواحيها وتمديدات المياه إليها (٦).

سوداء ووردية، يمرُّ من تحتها الدخان وبقايا الحرارة التي تُسخن المياه، وتُسمَّى بيت النار.

٣- الجواني: وهو القسم الداخلي من الحمام، ويتألف من ممرٍّ أوسط، يُسمَّى بيت النار، وهو أشدُّ حرارة من الوسطاني، وعلى جانبيه إيوانان تتصدرهما الأجران التي تتدفق إليها المياه الحارة والباردة، وعلى جانبي كل إيوان وفي صدره تفتح أبواب ذات أقواس معقودة من الآجر أو الحجر.

القميم: وهي الجناح الخارجي من الحمام، ويضمُّ الخزانة، وهي حجرة سقفها منخفض، تساعد على عدم تبريد بخار الماء. ويتم تأمين الإضاءة نهاراً بشبابيك علوية محكمة القفل من الزجاج.

وتستمدُّ الحمامات المياه من الطوالع القريبة، التي تزود مدينة دمشق بالمياه المستمدة بدورها من الأنهار القريبة.^(٥)

وهنا يتضح أن الجوامع والحمامات في حي الميدان قد استمدت المياه من نهر القنوات والديراني. ونهر القنوات: هو الفرع الرئيسي الذي يزود أحياء دمشق القديمة بالمياه، ينقسم قسمين، قسم يروي الأحياء الجنوبية من دمشق، وقسم يجري شرقاً، حيث تُوزع المياه إلى الطوالع، لتغذي البيوت والمساجد والكنائس والحمامات.

نهر الديراني: فرع من فروع نهر بردى، يسقي أراضي داريا وكفرسوسة والقدم وبعض بساتين الميدان والمزة وبعض بساتين الشاغور، يُعرف أيضاً بنهر داريا وبنهر الداراني.^(٧)

ولقد ارتبط عدد الحمامات في دمشق بعدد سكانها، وتوسّعها العمراني، وتناقص عدد هذه الحمامات مع الزمن بدءاً من القرن الثامن الهجري حتى الحادي عشر تحديداً ثم بدأ يتزايد. وتوارث العمل في الحمامات أسرٌ معينة، وكان لهذه الحرفة شيخها، شأنها شأن بقية الحرف، وغالباً ما يتم اللقاء في حمامات الحارات القريبة من منازل الأسر، إلا أننا نلاحظ أن بعض الحمامات كانت وقفاً على فئات اجتماعية معينة.

(5) التاريخ العمراني لدمشق بين 923-1373هـ/1516-1918م: لطفي فؤاد لطفي. ص329.

(6) دراسة تاريخية واجتماعية حول الماضي والحاضر. المؤسسة العامة لمياه عين الفيحة بدمشق.

(7) معجم دمشق التاريخي: قتيبة الشهابي. ص327

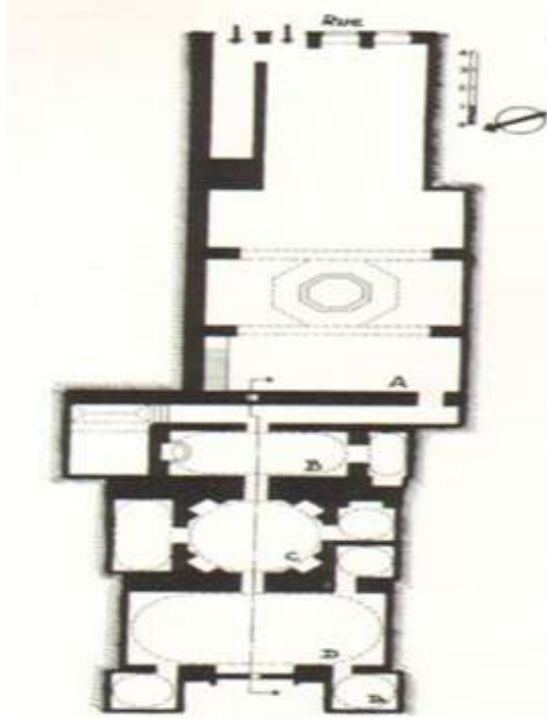


ثانياً _ حمامات حي الميدان:

وقد تأثرت المشيدات المعمارية في حي الميدان بعدد من المعطيات، كانت سبباً في إعادة ترميم أو تجديد أو إعادة بناء عدد من المباني. نذكر منها أولاً زلزال ١٧٣هـ، الذي ألحق الضرر بمآذن بعض المساجد، كما تصدّعت جدران العديد من المباني وتشقّقت، وأدّت الزلزلة إلى هدم السقوف، في حين انهدمت بيوت لا تُحصى .

«إنه في سنة ثلاث وسبعين ومائة وألف سادس ربيع الأول، في الساعة العاشرة من الليل، قد رجفت الأرض مقلقة لرياح عواصف ورعود قواصف، فطاشت لها العقول وحصل العياذ بالله غاية الذهول، وتخلّعت السقوف، وتشقّقت الجدران، وهدّمت في الشام بيوت لا تُحصى، وسقطت رؤوس مآذن دمشق.

وفي ثاني يوم من تلك الليلة صحوه النهار رجفت الأرض وزلزلت زلزلة شديدة، فسقط جزء من منارة الجامع الشريف الأموي الشرقية، وما من منارة إلا وهى بناؤها، حتى إن منارة السليمية بصالحية دمشق طارت منها حصة وافية وسقطت، والجامع المظفري بها أيضاً ومنارة سييبي والجامع المعلق وجامع حسان وجامع الأمير منجك بمحلة مسجد الأقباب وبمحلة الميدان، وبقية منارات جوامع دمشق تقصّفت، ولم يسلم منها إلا النزر القليل.



مخطط حمام الدرب (١١)

ثم استهلَّ شهر ربيع الثاني بيوم الأربعاء، ففي ليلة الإثنين سادس الشهر المذكور بعد صلاة العشاء بالجامع الشريف بنحو ثلاث ساعة رجفت الرجفة العظمى والزلزلة الكبرى، التي لم يُرَ ولم يُعهد مثُها في سوائف العصور».

ومن الأحداث التي شهدها الحي معركة الميدان وذلك يوم الجمعة في ٧ أيار سنة ١٩٢٦، فقد أقضَّ مجاهدو الميدان مضاجع الفرنسيين، واشتبكوا مع القوات الفرنسية بمعركة استمرت زهاء خمس ساعات، بقيادة الشيخ محمد الأشمر. كانت خسائر حي الميدان ٩٠٪ من دكاكين وحوانيت و٢٥٪ من البيوت، وقُتل من النفوس البريئة عدد كبير بتأثير القنابل المدمرة، ودكَّت الحملة مساجد الرفاعي والساحة والدقاق.

وقد نشر إيكوشار ولوكو عام ١٣٦٠هـ دراسات قيِّمة عن حمامات دمشق^(٨)، ذكر فيها أسماء ستين حماماً، وفي الميدان ورد ذكر الحمامات الآتية:

١- حمام التوتة:

في الميدان، شمالي الملجأ، ويُسَمَّى حمام التوتية، وكان من الحمامات العاملة حتى عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

٢- حمام الجديد:

غربي الطريق العام، إلى الشمال من حمام الدرب، أُغلق عام ١٣٧٠هـ/١٩٥٠م، ثم تحوَّل إلى قاعة لصنع النشاء. وبعدها تحوَّل إلى منشرة للخشب، وأُخذ الباقي دوراً للسكن.^(٩)

٣- حمام الدرب:

يقع الحمام في حي الدقاق في ميدان سلطاني غرب الطريق العام، مقابل جامع القبيبات (الكريمي). وكان يقع إلى شماليه حمام الجديد، وإبان الثورة السورية قُصف وجَدِّته حسيبة النوري. وقد هُدم الحمام منذ سنوات، ولا زال الشارع يحمل اسمه. ذكره إيكوشار ووصفه منير كيال بالتالي:

« يقع في ميدان سلطاني، وقد جُدِّد عام ١٣٤٦هـ، جدِّته الحاجة حسيبة بنت سليم النوري، بعدما ضُرب وخُرب أثناء الثورة السورية عام ١٩٢٥م، ويدلُّ على ذلك لافتة رخامية مثبتة فوق بابيه كُتب عليها: من يطلب العافية من الرب فليقصد حمام الدرب، وقد ذكره إيكوشار كما ذكره المنجد.^(١٠)

(8) حمامات دمشق وتقاليدها: منير كيال. ص 55

(9) خطط دمشق ودراسات في تاريخ دمشق الطبوغرافي وآثارها القديمة: صلاح الدين المنجد. ص 55.

(10) حمامات دمشق وتقاليدها: منير كيال. ص 106

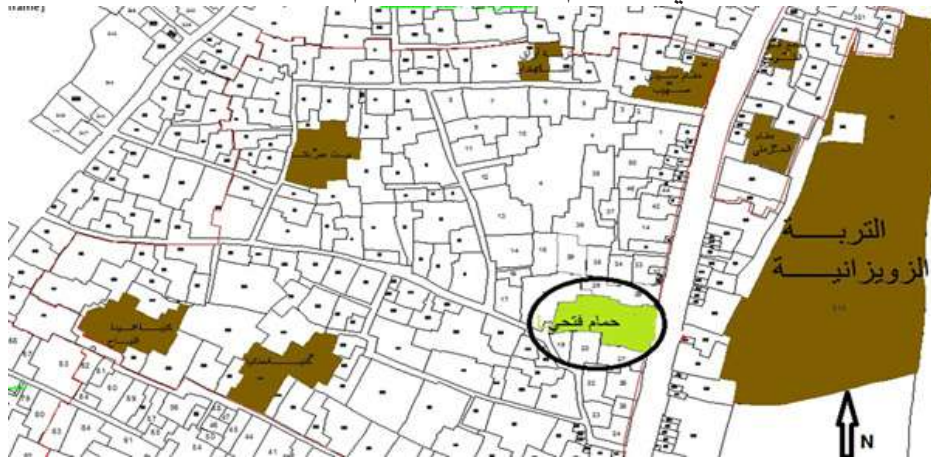
٤- حمام عقيل:

يقع في ميدان حقلة، مقابل جامع الشيخ يعقوب، هو من حمامات القرن الثالث عشر، بُني سنة ١٢٢٠هـ، جدده السيد سليم النوري، وقد أقفل أبوابه سنة ١٣٧٥هـ.^(١٢) وما يزال البناء قائماً إلا أنه فقد وظيفته، وهُجر بعد تهدم معظم حيطانه وسقفه.

ذكره إيكوشار كما ذكره المنجد، ووصفه منير كيال بقوله: «كان هذا الحمام يستقبل الرجال في فترة ما قبل الظهر، والسيدات من الظهر حتى غروب الشمس، وهو يحتاج إلى عناية كبيرة ليستطيع الاستمرار في كونه حماماً، لأنَّ القائمين عليه كما يبدو لايهمهم من أمر الحمام أكثر من جمع المال واعتبار أن مردوده قليل، فإن عمليات التخريب والترقيع ستستمر حتى يخرب. وهذا الحمام يعتمد على مياه بئر فيه لاستعمالاته المختلفة ومياه الفيحة للشرب. وكذلك يستعمل كغيره القمامة والنشارة كمادة الوقود».^(١٣)

٥- حمام فتحي:

يقع في حي الميدان الوسطاني غرب الطريق العام، جنوب مقام سيدي صهيب، يعود للقرن الثامن عشر الميلادي، وقد اعتبرته المديرية العامة للآثار والمتاحف نموذجاً للآثار العثمانية، وسجلته بالرقم ٢١. بناه فتحي أفندي الدفتردار^(١٤) عام ١١٥٦هـ/١٧٤٣م. وهو الذي بنى مدرسته المعروفة في القيمرية، وبنى الحمام ليكون وقفاً عليها لا ليغتسل فيه الناس مجاناً، ويأخذ كل واحد « قرصين من الصفيحة» كما يقول الأستاذ منير كيال، جدّد السيدان شفيق ومحمود ولدي عارف آغا النوري الحمام عام ١٣٦١هـ كما هو مدون عليه، وبقي الحمام قيد الاستخدام لعشر سنوات، حيث أُغلق عام ١٣٧١هـ،



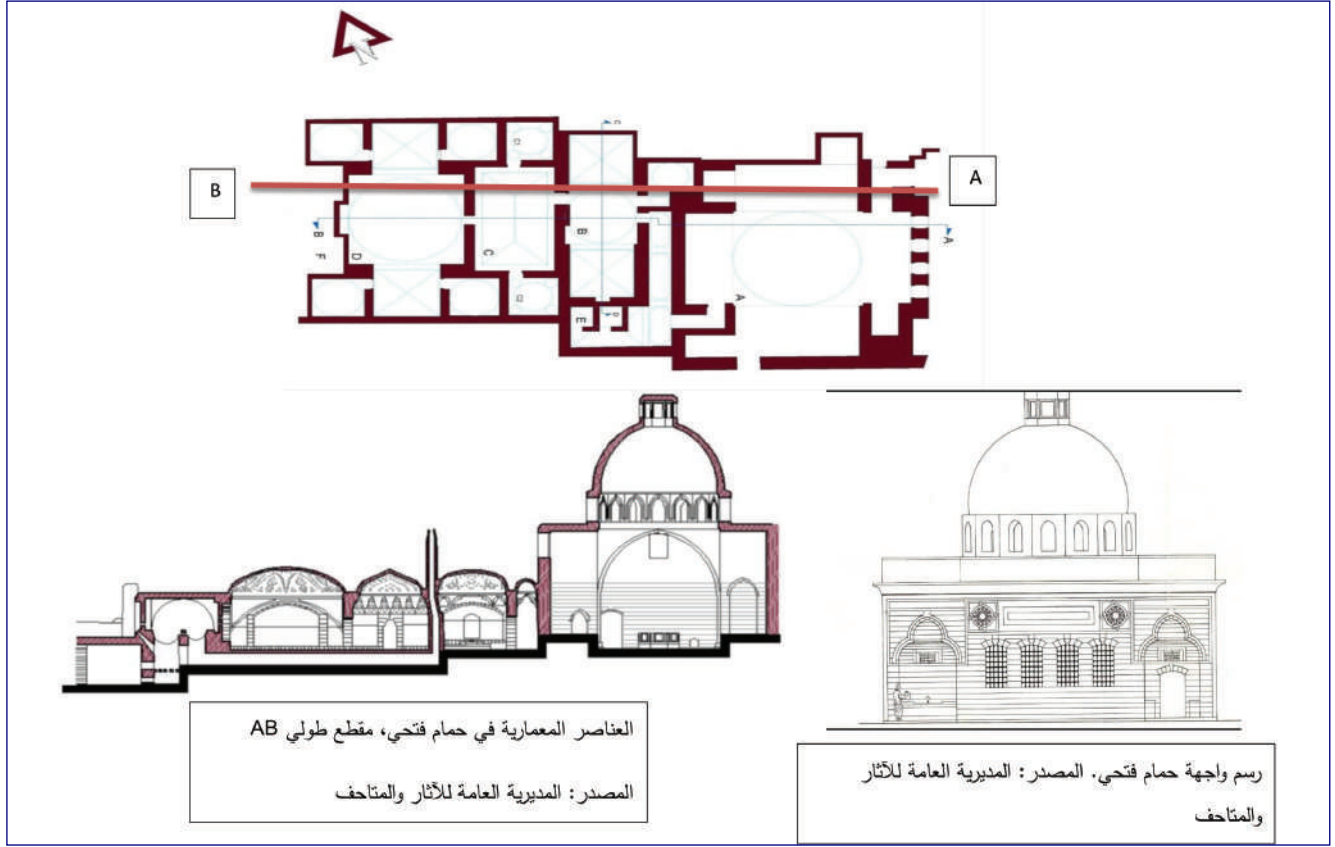
(11) Jacques Langhade: Damas Extra- Muros. Midan Sultani. Damas. 1994. P53

(12) دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين 906-922هـ/ 1500-1520م: أكرم حسن العلي. ص 525

(13) حمامات دمشق وتقاليدها: منير كيال. ص 103

(14) فتحي أفندي الدفتردار: هو فتحي بن محمد بن محمود القلاقسي، من عائلة كانت تعمل في مجال الحياكة، ثم أصبح فتحي الدفتردار أمين الخزينة في دمشق، ولشأنه الكبير كثر اتباعه وخدمه، وغدت داره منتدى الأدباء وأصحاب الموسيقى والألحان، وتردد عليه الأدباء والشعراء، ثم تعاضم نفوذه حتى بات يُعرف باسم سلطان دمشق (بنى مسجدًا في القيمرية وحمامًا في الميدان)، توفي 1159هـ.

أعلام الفكر في دمشق بين القرنين الأول والثاني عشر للهجرة: إحسان سعيد خلوصي، ص 275



العناصر المعمارية في حمام فتحي، مقطع طولي AB
المصدر: المديرية العامة للآثار والمتاحف

رسم واجهة حمام فتحي. المصدر: المديرية العامة للآثار
والمتاحف

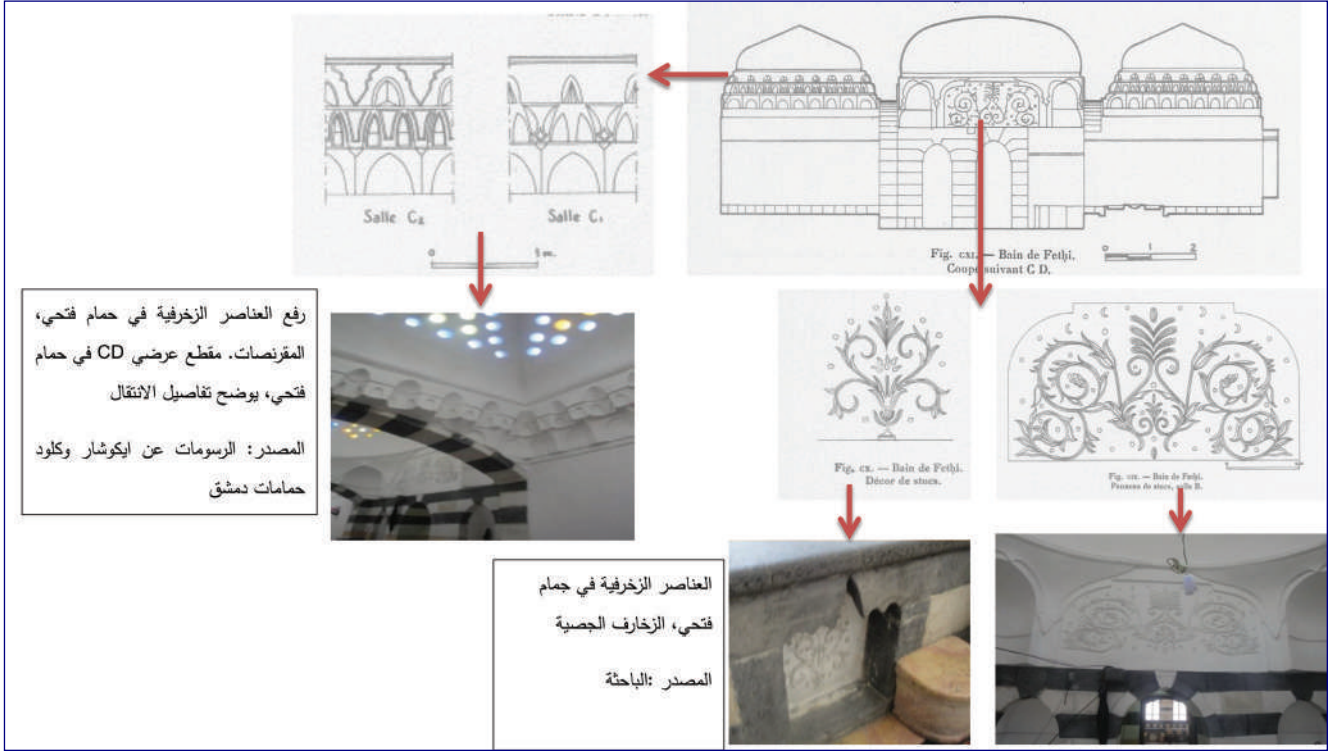
وتحوّل إلى مستودع للحبوب ثم مستودع للأخشاب.⁽¹⁵⁾

وفي بيان المديرية العامة للمصالح العقارية يُذكر أنه تمّ الحجز على ملكية ضياع النوري لمصلحة المحافظة، ورهنه لمصلحة السلطات الأثرية.

يتميّز الحمام بواجهته الخارجية المطلّة على الشارع العام، تتألف من قوسين، كلّ منها (ثلاثي الفصوص)، الأول يتضمن باباً خشبياً بمصراعين يعلوه ساكف قوسي، ويحفّ بالقوس زخارف حجرية ذات شكل هندسي، ويعلوه صفٌّ من المزررات المتناوبة بين الأسود والبرتقالي، أمّا الإيوان الثاني فيتضمن سبيل ماء، وهو متناظر مع الإيوان الأول حيث يعلو السبيل نقش حجري، ويعلو قوسه أيضاً صفٌّ من المزررات، وبين الإيوانين أربعة نوافذ خشبية بمصراعين ذات شبك حديدي، يعلو كلاً منها قوسٌ عاتق مزين بزخارف هندسية في الوسط، ونباتية في الزوايا.

وفي أعلى ومنتصف الواجهة دائرتان مزينتان بزخارف نباتية وهندسية، وبين الدائرتين مستطيل مزخرف بأشكال هندسية، يحيط به مستطيل رخامي، ذو لون برتقالي، يليه مستطيل آخر ذو زخارف هندسية ونباتية، والواجهة مآطرة بشريط حجري من الفسيفساء، والواجهة حالياً ذات مداмик متناوبة من الحجر الأبيض والأسود والبرتقالي، قديماً وقبل عمليات الترميم كان القسم العلوي فقط أبلق، بينما القسم السفلي من الحجر الأسود، وفي الأعلى نافذة خشبية صغيرة ومربعة، في حين

(15) دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين 906-922هـ/ 1500-1520م: أكرم حسن العلي. ص 526



توضّع مكان النافذة الثانية بابٌ كان يفتح مباشرة على البراني، تم إغلاقه وتحويله إلى نافذة إثر عملية الترميم.

ويؤدي الباب إلى دهليز ضيق قصير، يوجد عن يمينه غرفة صغيرة، كانت تستخدم كمستودع، ثم ينحرف الدهليز إلى الجنوب لينفذ عبر باب صغير إلى البراني، الذي يتشكّل من صحن مربع مسقف بقبة، ترتكز على رقبة تضم ست عشرة نافذة. وتحت القبة بركة ماء مثمّنة، في وسطها نافورة ماء، البركة من الداخل مغطاة بطبقة إسمنتية، ومن الخارج مكسوة بالرخام الملون والمقسم إلى مربعات مزينة بنجمات رباعية أو سداسية أو مثمّنة.

أمّا أرض البراني فهي مرصوفة بالرخام والحجر الكلسي البرتقالي اللون والأسود. ويطلّ على الصحن أربعة أواوين، الشمالي والجنوبي مرتفعان عن مستوى الأرضية على شكل مصطبة يصعد إليها بدرجتين نصف دائريتين من الحجر الكلسي، وأسفل كل مصطبة أربع كوات صغيرة لوضع الأحذية. وفي جدار الإيوان الشمالي كتبية. في حين يضم جدار الإيوان الشرقي ثلاث نوافذ تطلّ على الشارع، وقد كان مدخل الباب القديم يفصله إلى مصطبتين، يصعد إليهما بدرجتين أيضاً، وعلى جداره ثلاث لوحات خشبية كتب عليها آيات قرآنية «ما شاء الله. بالله المستعان. توكلت على الله».

ومن الإيوان الغربي يتم الانتقال إلى الوسطاني المقسم إلى قسمين، الأول: ويتم الولوج إليه عبر باب يؤدي إلى ممر مستطيل يتوضّع في الجهة الجنوبية منه دورات المياه (مرحاضان)، ويتابع الممر شمالاً، في الجدار الغربي عبر باب ذي ساكف قوسي، يُفضي إلى الوسطاني الأول، وهو عبارة عن صحن



متوسط مسقف بقبة نصف دائرية، متمركزة على مقرنصات جصية، يتخلل القبة كوات التهوية المغطاة بالزجاج الملون، ويتوضع في الطرفان الشمالي والجنوبي مصطبتان متناظرتان من حيث الشكل، يُصعد لكل منهما بدرجة صغيرة نصف دائرية، سقّف كل منها بقبة ذات كوات مغطاة بالزجاج الملون.

ومن الباب المتوضع في الجدار الغربي ذي القوس العاتق يتم الانتقال إلى الوسطاني الثاني: الذي يضم ثلاثة أقسام، الشمالي والجنوبي متناظران، يتألف كل منهما من غرفة مربعة الشكل، سقّفها عبارة عن قبة ترتكز على مقرنصات جصية مرفوعة على الجدران المطلية بالكلس الأبيض والأزرق. ويتوضع في الغرفة الشمالية جرن ماء مربع الشكل يصب إليه الماء من صنوبر يشبه رأس الثور. أمّا الأرضية فقد رُصفت بالرخام ذي اللون البرتقالي والحجر الأسود، بينما الأرضية في الغرفة الجنوبية مرصوفة بالحجر الأسود والأبيض. أمّا القسم الأوسط فيتشكل من صالة مستطيلة، سقّفت بقبة نصف دائرية، ترتكز على مقرنصات ثلاثية الأقواس، يتخلل القبة كوات مغطاة بالزجاج الملون، وأرضية الصالة مرصوفة بالحجر الأسود والرخام الملون، وتضم قناتين للماء.

وبجانِب الجدار الغربي جرنان حجريان مربعاً الشكل، وباب ذو قوس عاتق يفضي إلى القسم الجواني: وهو أيضاً مقسم إلى ثلاثة أقسام، القسم الأوسط مستطيل الشكل، سقّفه قبة ذات كوات مغطاة بالزجاج الملون، ترتكز القبة على أربعة أقواس، وفي الشرق تتوضع مصطبة صغيرة، أمّا إلى الغرب فتوجد فتحة بيت النار، حيث تتوضع حلتان حجريتان كبيرتان للماء، وجرنان حجريان مربعاً الشكل، أمّا الأرضية فمكسوة بالحجر الأسود والرخام الأبيض، الذي يتخلله قناتان للماء. في حين طليت الجدران بالكلس الأبيض والزرقة.



أما القسمان الشمالي والجنوبي فهما متناظران ومتشابهان من حيث الشكل والتوزيع، ويتألف كل منهما من إيوان يفتح بقوس على القسم الأوسط، طليت جدران الإيوان بالكلس الأبيض والأزرق، وفي الإيوان الشمالي جرنان حجريان مربعا الشكل، وفي الإيوان الجنوبي جرنان دائريان. ولكل إيوان بابان شرقي وغربي، يفضي كل باب إلى مقصورة إفرادية صغيرة مربعة الشكل، سُقفت بقبة ترتكز على مقرنصات جصية، ويتخلل القبة كوات إضاءة وتهوية مغطاة بالزجاج الملون. كُسيت أرضية المقصورات الشمالية بالرخام والحجر الأسود والبرتقالي، ويوجد في كل مقصورة جرنان دائريان، أحدهما من الرخام والآخر من الحجر. أما المقصورات الجنوبية فالأرضية مكسوة بالحجر الأسود والأبيض، وفي كل مقصورة جرنان من الحجر.

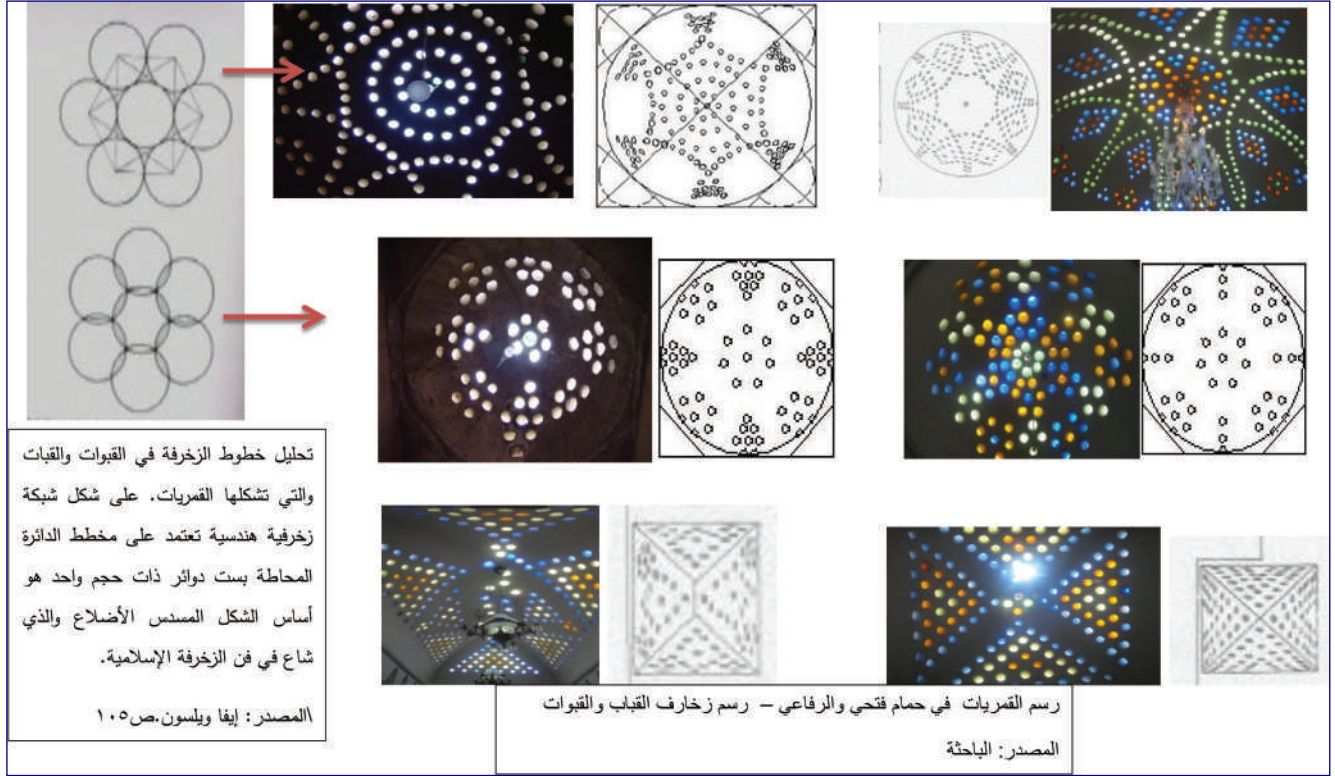
شُيّد الحمام بمواد البناء المتوفرة في دمشق، حيث استُخدم الحجر كمادة أساسية في إنشاء الجدران، كما استُخدم الآجر في بناء القباب والقبوات، لأن الحجر والآجر يتميزان بكونهما من مواد البناء ذات السعة الحرارية العالية، التي تُحافظ على حرارة صالات الاستحمام كونها تؤمن عزل الفراغ الداخلي عن الخارج، وبالتالي التخفيف من الخسران أو الكسب الحراري.

من خلال الدراسة الميدانية وتوثيق وتوصيف المبنى ودراسة مخططه المعماري تبين أنه يمتاز بمسقط خطي طولي يمتد باتجاه شرق غرب، حيث إن أقسامه تتوضع بترتيب متتال مما يعطي امتداداً طويلاً لمسقط الحمام. كما تميّز الحمام بأن صالة البراني كانت واسعة وكبيرة نسبة لغيره من الحمامات في تلك الحقبة، مما يؤكد أهميّة موقع الحمام في الحي، وكانت العادة في تشييد الجواني أن يكون مستطيل الشكل تعلوه قبة متطاولة، إلا أنه في حمام فتحي اعتمد على الفراغات المربعة الشكل التي تعلوها قبة كبيرة، في البراني والجواني، حيث استبدلت القبة المتطاولة في الجواني بقبة دائرية كبيرة تقارب في حجمها حجم القبة التي كانت تُغطي فراغ البراني، لكنها انهارت واستبدلت بسقف مستو حديث. في حين اعتمد في تسقيف قسم الخدمات على جوائز خشبية محمولة على أقواس تنقل بدورها الحمولات إلى الجدران.

أما بقية الأقسام فقد سُقفت بقبوات متصالبة ذات شكل رباعي مبنية من الآجر، ترتكز على قاعدة مربعة ويتم الانتقال من القبوة إلى القاعدة المربعة بالاعتماد على الحنايا الركنية أو المثلثات الكروية، التي تنقل بدورها حمولة السقف إلى الجدران ومنها إلى الأرض.

من العناصر المعمارية الهامة أيضاً في الحمام الأقواس. حيث استُخدم القوس نصف الدائري المجزوء، الذي تقل فتحته عن نصف دائرة في الأبواب والشبابيك، كذلك استُخدم القوس الجديد الذي يختلف عن القوس الذي ظهر في العصر العباسي، وهو عبارة عن قوس مكسور مؤلف من جزأين الرأسي مستقيم والسفلي محدب، أما في العصر العثماني فقد أصبح القسم المستقيم مقعراً قليلاً نحو الخارج⁽¹⁶⁾.

(16) مدينة دمشق تراثها ومعالمها: عبد القادر ربحاوي. ص 222



تحليل خطوط الزخرفة في القباب والقنوات
والتي تشكلها القنريات، على شكل شبكة
زخرفية هندسية تعتمد على مخطط الدائرة
المحاطة بست دوائر ذات حجم واحد هو
أساس الشكل المسنن الأضلاع والذي
شاع في فن الزخرفة الإسلامية.

المصدر: إيفا ويلسون، ص ١٠٥

رسم القنريات في حمام فتحي والرفاعي - رسم زخارف القباب والقنوات

المصدر: الباحثة

ويلاحظ في صالة البراني وصلات الاستحمام ظهور عنصر معماري متميز يتمثل بالخرن الجدارية أو الكتيبات، والتي تنوعت قياساتها مع الحفاظ على الشكل المستطيل، وتعلوها قوس مدببة، وتميّزت الكتيبات في فراغ البراني بعمق كبير نسبياً، أما الكتيبات الداخلية فهي عبارة عن فتحات جدارية قوسية، استُخدمت في البراني لتضيد ملابس الزبائن، وفي الداخل كرفوف لوضع أدوات الاستحمام، أضافت فضلاً عن تأديتها لدورها الوظيفي جماليةً للجدران وأغنت الواجهات الداخلية.

ومن الناحية الزخرفية فإن المظهر الداخلي لحمام فتحي مترف وغني بالتفاصيل الكثيرة والمتنوعة، حيث يضم غالبية أنواع الزخارف التي ازدهرت في العصر العثماني، وهذا يؤكد أهمية مركز الحمام الاجتماعي.

وبرزت الزخارف بشكل رئيسي في أرضيات صالات الحمام كافة، وتميّزت بتشكيلاتها الرخامية والحجرية، التي رُصفت وفق أشكال هندسية، تعقدت نوعاً ما أحياناً وبألوان متعددة، وكانت بمعظمها تُؤطر بإطار يحيط بتلك الزخرفة، ونُفذت بالرخام الأبيض المكحل بالأسود والرخام المزوي والحجر الأسود والوردي، كما استُخدمت الزخرفة بالمشقّف وهي عبارة عن تشكيل قطع الرخام الملونة على شكل زخرفة في الأرضيات وفي واجهة البحرات التزيينية.

وقد احتوى الحمام على بحرة في البراني، وأخرى في الوسطاني، وهي بحرة رخامية ثمانية الأضلاع، مكسوة برخام أبيض مكحل بالأسود، ذي نقوش هندسية مربعة الشكل. ونظراً لكون



الوسطاني مكاناً للجلوس والاستراحة للمستحمين فإن هذه البحرات تعطي جمالية للفراغ، فضلاً عن دورها في تعديل المناخ ونشر الرطوبة، والإفادة منها كمصدر للماء البارد .

ومن العناصر الزخرفية المتميزة في حمام فتحي المقرنصات التي وُجدت بأشكال عديدة ومتنوعة في كافة فراغات الاستحمام، كما استُخدمت في زوايا القباب كعنصر انتقال بين الفراغ المربع والقبعة الدائرية، وتجدر الإشارة إلى أن المقرنصات استُخدمت أيضاً أسفل القبوات، كعنصر زخرفي وإنشائي في آن واحد، وتنوعت أشكالها كطاسة المحراب تارة أو محززة كالصدفة تارة أخرى.

أما الزخارف الجصية فنجدها في حمام فتحي أسفل المصاطب في البراني، وفي فراغ الوسطاني، واحد أعلى باب الدخول، وأخرى مشابهة له تماماً في الباب المقابل، المؤدي إلى القسم الأول من الجواني. وتشكلت الزخارف الجصية على هيئة زخارف نباتية تمثل زهرة اللوتس، وعروق نباتية محيطة بها تعتبر من أهم أشكال الفن الإسلامي.

كما توجد تشكيلات زخرفية مميزة في الحمام من خلال طريقة توزع القمرينات المخترقة للقباب والقبوات، والتي توزعت بشكل زخرفي هندسي نجمي، أو بشكل دروب متتالية، وتختلف في حمام فتحي كل قبة أو قبوة عن الأخرى بطريقة توزع تلك القمرينات.

٦- حمام الرفاعي؛

يقع في محلة الجزماتية، جنوب جامع الرفاعي، شرق الطريق العام. المسجل لدى المديرية العامة للآثار والمتاحف بالقرار رقم (س-٤٣٧) لكونه من الحمامات الأثرية. عدّه إيكوشار من حمامات القرن السادس عشر الميلادي_ العاشر الهجري تعرّض للحريق عام ١٩٢٥ نتيجة قصف القوات الفرنسية لحي الميدان، وجدده رضا العابد .

يعتمد على مياه بئر لاستعمالات العامة، وعلى مياه نبع الفيحة للشرب، وكان يستخدم القمامة والمواد القابلة للاشتعال كوقود لتسخين الماء.

يطلّ الحمام على الشارع العام عبر بوابة ذات مصراع خشبي من ردفين، وليس له أي واجهة خارجية مظلة على الشارع، باستثناء هذا الباب الذي يؤدي عبر ممر إلى البراني، وهو حديث أعيد إعمارُه بعد الحريق على غرار ما كان عليه سابقاً وبمواد تقليدية.

والبراني عبارة عن ردهة مستطيلة يتوسطها بحرة ثمانية الأضلاع، يحفُّ بها من جهة الشمال والجنوب مصاطب مرتفعة بدرجتين، يتوسط الجدار الجنوبي نافذتان تطلان على شارع فرعي، أما الجهة الغربية فيفصلها مدخل الحمام إلى مصطبتين، ويتصدر الجهة الشرقية إيوان تحيط به المصاطب.

والسقف عبارة عن قبة تستند على رقبة مثمّنة، تتركز على أربع دعائم، في الزاوية الشمالية الشرقية مدخل منخفض يعلوه ساكف حجري على شكل قوس نصف دائري، يُفضي إلى ردهة صغيرة



تضم المراحيض ومصاطب على الجانبين، سُقفت بقبتين ذات كوى مغطاة بالزجاج الملون، ترتكز القبتان على قوس نصف دائري في الوسط ومقرنصات جصية في الزوايا، ويوجد في الدهليز جرن ماء حجري مستدير الشكل، أما أرض المدخل فقد كُسيت بالحجر الأسود، والجدران مغطاة بالرخام الملون. ويوجد مدخل ذو ساكف، قوسه نصف دائري منخفض، يؤدي إلى المشلح، وهو على شكل مقصورة مستطيلة مبلطة بالرخام الأبيض المكحل بالأسود، سُقفت بقبة ذات كوى مغطاة بالزجاج، ترتكز على أربعة أقواس، جدرانها مطلية بالكلس، أما القسم السفلي من الجدران فمغطى بالرخام الملون للحد من تأثير الماء والرطوبة، وتحتوي المقصورة على ستة أجران، ثلاثة منها حجرية وثلاثة رخامية، وفي الشرق إيوان يضم ثلاثة أجران، وعبر ردهة جنوب الوسطاني الثاني ننتقل إلى الجواني.

والردهة سقفها قبة نصف دائرية ترتكز على دعائم، يتفرع من الردهة شرقاً إيوان منفرد، سقفه مقبب وفيه جرن واحد، وعبر باب إلى الجنوب من القسم الوسطاني ننتقل إلى القسم الجواني المسقف بقبة نصف دائرية، ترتكز على أربعة أقواس، كل قوس منها فتحة إيوان يطل على الجواني، وفي الزوايا الأربعة مقرنصات حجرية يتخللها قمریات مغطاة بالزجاج الملون. والأواوين الأربعة سُقفت بقباب يتخللها قمریات مغطاة بالزجاج، وترتكز القبة في كل إيوان على أربعة أقواس. وقد كُسيت جدران الجواني بالرخام المشقف، وفي كلا الإيوانين الشمالي والجنوبي فجوتان جداريتان صغيرتان فيهما حوض ماء. وفي كلا الإيوانين الشرقي والغربي جرن ماء.

يفصل بين الأواوين الأربعة أربعة صالات مربعة، اثنتان شماليتان، أرضياتهما مرصوفة بالحجر الأبيض والأحمر، وفي وسط كل منها قناة جر للمياه، وجدرانها مطلية بالكلس الأبيض، وفي كل غرفة يوجد جرن ماء رخامي.

يختلف حمام الرفاعي عن حمام فتحي من حيث المسقط، حيث لم يأخذ حمام الرفاعي المسقط الطولي، كما هو الحال في حمام فتحي، وإنما له مسقط مختلف تطفى فيه القاعة الدافئة من حيث الحجم وطريقة التوزيع. بحيث ارتبط البراني بقسم الخدمات بشكل غير مباشر عبر ممر طويل ومنكسر، وذلك للحماية من الظروف المناخية، كما أن الممر المنكسر يحجب الرؤية من الخارج للداخل. ومن الناحية الإنشائية تميّز الحمام ببنية معمارية مختلفة، حيث إن القسم البراني مستوى أرضيته أعلى من بقية أقسام الحمام، وذلك يحقق الفصل الوظيفي، كما له دور تقني يتعلق بعملية ضخ المياه، حيث إن الأرضيات في القسم الجواني أيضاً تميل ميلاً خفيفاً باتجاه مجاري التصريف لتحقيق سهولة تصريف المياه.

امتاز الحمام بنظام توزيع مياه مدرّوس بدقة، يمنع تسرب المياه، وهذا النظام مشابه من حيث المبدأ لنظام تصريف المياه في حمام فتحي، وحال غالبية الحمامات الدمشقية القديمة، نظراً إلى أن الماء يجري بصورة دائمة وبغزارة على الأرض، وعليه فإن تصريف المياه يجب أن يُدرس وينفذ بعناية، وذلك لتجنّب الصعوبات التي يمكن أن يتسبّب عنها تسرب المياه.

البراني هو الفراغ الوحيد الذي لا يحوي تصريفاً مباشراً للماء، حيث يوجد فتحة بالقرب من البحرة، وكذلك فتحة في الردهة المؤدية إلى القسم الجواني، تبعث المياه إلى المجرور مروراً بقساطل تصريف دورات المياه، والبلاط في الممر المؤدي إلى الوسطاني، وكذلك في قسمي الوسطاني والجواني، يُغطّي مجراية الدخان (بيت النار)، ويشكل أساس تصريف مياه الحمام.⁽¹⁷⁾

ومن ناحية أخرى فإن جميع المقصورات يميل البلاط فيها بصورة خفيفة لتسهيل تصريف المياه. وبالتالي فإن تصريف المياه في الحمامات على نوعين:

- تصريف على وجه البلاط.

- تصريف عن طريق القناة الممتدة تحت الأرض.

ويتشابه حمام الرفاعي مع حمام فتحي في مواد البناء، وقد تميّز حمام الرفاعي بإكساء الجدران بالرخام والحجر الأسود، وذلك بهدف عزل الرطوبة العالية في الحمام، وخاصة في الأقسام المخصصة للاستحمام، نظراً للتعرض الدائم والغزير للمياه. وتمّ تنفيذه من خلال تشكيلات هندسية بسيطة وغير معقدة، ولكنها متوازنة في نسبها ومتنوعة في ألوانها وتعود للفن الإسلامي الأصيل، وتُسمّى أطباقاً نجمية⁽¹⁸⁾.

ومن ناحية العناصر الفنية والزخرفية فقد تميّز حمام الرفاعي بعدم المبالغة بزخارفه، حيث بدت بسيطة ومتنوعة، برزت بشكل أساسي في أرضيات كافة الصالات بتشكيلات رخامية وحجرية

(17) دراسة الحالة الإبداعية في تصميم حمامات مدينة دمشق القديمة: جوسلين مراد. ص 163.

(18) الأطباق النجمية أو المثلثات أو المضلعات النجمية هي من أساسيات الزخرفة الإسلامية الهندسية، فالطبق النجمي يبدأ برسم مربع، داخله دائرة تمس أضلاعه، ومن ثم يبدأ التقسيم. تُقسم الدائرة لتكون شكلاً نجمياً بعد التصنيف ورسم الأوتار والأقواس. الأطباق النجمية لها مقاسات كثيرة تبدأ من ثماني الأضلاع وتصل إلى 32 ضلعاً، ألوانها تتسق مع ألوان التصاميم والطرز الإسلامي كالأحمر، البني، الأخضر والأزرق بدرجاته، يستخدم في تشييق الأخشاب لتصميم منابر المسجد، وكذلك المشغولات التي تطعم بالصدف. ويرى مفهوم المركزية في الفن الإسلامي في الأشكال الهندسية، والتي يعبر عنها طبق النجمي، فهو عبرة عن صورة إشعاعية تتحرك في اتجاه معين ولكن بصورة ثابتة في مركز الزخرفة.



رُصفت وفق أشكال هندسية، نُفذت بالرخام الأبيض المكحلّ بالأسود والرخامي المزوي والحجر الأسود والوردي. كما استُخدمت البحرات والقمريات والمقرنصات والسقف العجمي. ومن العناصر المتميزة في الحمام الأجران، التي تُمثّل الوعاء الذي يستقبل مياه الاستحمام في الصالات المُخصّصة لذلك، حيث يوجد في كل صالة عدد من الأجران، التي كانت تُوضع ليجتمع حولها المستحمين.

وفي الحمام عدد كبير من الأجران بعضها حجرية، والبعض الآخر رخامية بألوان مختلفة، تتميز بتشكيلات هندسية متنوعة، وبعضها ذو نقوش وأزهار نافرة.

في الختام: هذا عن حمامات الميدان في العصر العثماني، وهي بحاجة إلى عناية ومتابعة، وإلى اهتمام أكبر من المعنيين بآثار دمشق، وعدد منها يحتاج إلى ترميم، وبعضها الآخر يتطلب إصلاحات عديدة.

ـ مصادر البحث ومراجعته:

- ـ أعلام الفكر في دمشق بين القرنين الأول والثاني عشر للهجرة: خلوصي، إحسان سعيد، دار يعرب للدراسات والنشر والتوزيع، د.م.ن، ١٩٩٤ م.
- ـ التاريخ العمراني لدمشق بين ٩٢٣-١٣٧٣هـ/١٥١٦-١٩١٨م: لطفي، لطفي فؤاد، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١١.
- ـ تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي: آل جندي، أدهم، مطبعة الاتحاد، ١٩٦٠.
- ـ حي الميدان في العصر العثماني: مارينو، بريجيت، تر: ماهر الشريف، دمشق، دار المدى، ٢٠٠٠.
- ـ خطط دمشق ودراسات في تاريخ دمشق الطبوغرافيا وآثارها القديمة: المنجد، صلاح الدين، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٤٩.
- ـ دراسة تاريخية واجتماعية حول الماضي والحاضر. المؤسسة العامة لمياه عين الفيحة بدمشق.
- ـ دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠-١٥٢٠م دراسة تاريخية واجتماعية وثقافية واقتصادية: العلي، أكرم حسن، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٩.
- ـ دمشق في مطلع القرن العشرين: العلاف، أحمد حلمي، تع: علي جميل نعيسة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٦.
- ـ الروضة الغناء في دمشق الفيحاء: القساطلي، نعمان، دار طلاس، دمشق، ٢٠٠٤.
- ـ الزلزلة العظمى: الغزي، محمد فهمي، مجلة الشرق، مج ٦، ج ٩، ١٩٨٥.
- ـ حمامات دمشق وتقاليدها: كيال، منير. مطابع وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٦.
- ـ مدينة دمشق تراثها ومعالمها: ربحاوي، عبد القادر، دار البشائر، ١٩٦٩.
- ـ معجم دمشق التاريخي: الشهابي، قتيبة، ج ١، د ن.

- Damas Extra- Muros. Midan Sultani. Damas: Jacques Langhade. 1994.

- Michel Ecochard et claud le coeur institut francais de Damas. Imprimerie Catholique, Beyrotuth, 1943.



انتقلنا إلى فرع جديد

دمشق المالكي جادة عبد المنعم رياض
جانب المالكي أفينيو (ماسة مول سابقاً)

للاستفسار: ٣٣٥٤٠٢١

بنك
الشرق ش.م.م.ع. 